توماس هيتشه

HERZFADEN

خيوط القلب

رواية عن صندوق عرائس

أوجسبورج

تحوي سبعًا وعشرين رسمًا توضيحيًا

للرسام ماتياس بيكمان

Kiepenheuer & Witsch

إنتزعت الفتاة نفسها من يد أبيها وركضت بعيدًا. فلم تكن ترغب في أن يراها وهي تبكي بأي حال من الأحوال، بل أنها هي نفسها لم تفهم لماذا شعرت فجأة بالرهبة والحزن، لدرجة جعلت الدموع تنهمر من عينيها. إندست وهي يائسة وسط جموع من الأطفال الصغار الذين كانوا يتجولون محدثين ضجيج في الردهة بعد انتهاء العرض، ثم انزوت في أقصى ركن في القاعة الكبيرة واتخذت وضع القرفصاء على الأرض حتى لا يستطيع أبوها رؤيتها. سحبت الهاتف المحمول ماركة أيفون من جيب سترتها ذات الطاقية وأرسلت لكل صديقاتها وجوه سمايلي الضاحكة لحد البكاء. وظلت أثناء ذلك تمسح دموعها هي الحقيقية عن وجهها حتى لم تعد تتساقط.

عندما استطاعت أن ترى بوضوح مرة أخرى لاحظت بجانبها بابًا خشبيًا صغيرًا، مدهونًا باللون الأبيض الجيري مثل الحائط وليس عليه قفل أو مقبض. بدافع الفضول تلمست بأصابعها ذلك الشق الضيق بين الخشب والحجارة. فتحرك الباب وإن كان ثقيلاً، كما لو أن أحدًا لم يفتحه منذ وقت طويل. نهضت الفتاة وجذبت بكل قوتها لوح الباب، وإذا بتيار هواء بارد عفن يلفح وجهها. غطت طبقة سميكة من الغبار الأرض الحجرية العارية أمام تلك الظلمة الممتدة، بينما رأت الفتاة في الضوء الساقط من الردهة أول درجات سلم حلزوني تعلوها درجة أخرى أخفتها الظلمة. وما أن سمعت الفتاة أبيها ينادي عليها حتى اندست عبر الباب وأغلقته وراءها.

في نفس اللحظة كسا السواد الحالك كل شيء حولها. أخذ قلب الفتاة يدق بقوة حتى كادت الدقات تصل إلى الحلق. أضاءت بطارية الجيب المزود بها هاتفها الأيفون ووضعت قدمًا واحدة على أول درجات السلم، ثم على الثانية وعلى التالية واستمرت في الصعود. وكانت أثناء ذلك تتشبث في ضوء البطارية الباهت بالعامود الحجري الذي يلتف حوله مسقط السلم الحلزوني بإحكام وهو يمتد لأعلى. فجأة إنطفأ الضوء. فتسمرت الفتاة في مكانها وهي ترتعد. بطارية الهاتف، إذ كانت الفتاة تعلم أن نسبة الشحن كانت خمسة وسبعين بالمئة.

تحسست طريقها بحذر وأخذت تصعد درجة وراء الأخرى ببطء في الظلام. وشعرت بالبرودة تزداد من حولها. تشبثت أكثر بالعامود الحجري بإحدى يديها بينما جذبت باليد الأخرى طاقية البلوفر لتغطي رأسها. ولم تتمكن من أن تمنع نفسها من التفكير في مدى رغبتها صباح ذاك اليوم بالمنزل في ارتداء هذا البلوفر الأبيض الجديد ذي الطاقية وكيف أخذت تضفر الجدائل المعقدة نوعًا ما، والتي كانت إحدى صديقاتها قد أرتها إياها، رغم إلحاح أمها على ضرورة الإسراع وأنه كان يتعين عليها اللحاق بالقطار منذ وقت طويل. عندما تذكرت ذلك كادت أن تبكي مرة أخرى. فكرت بغضب عمّا جال بخاطر أبيها: مسرح العرائس للأطفال الصغار. إلا أنها بينما كانت تصعد الدرج الذي لا ينتهي، وتستمر في الصعود، إنتابها الشعور كما لو أنها كانت تصبح أصغر وأصغر مع كل درجة من درجات السلم، وأنها قد تختفي تمامًا في الظلام، ولن يكون لها وجود على الإطلاق، وكادت تشعر بالسعادة لمجرد التفكير في ذلك. عندئذ اصطدمت قدمها بشيء صلب.

حبست الفتاة أنفاسها. تُرى هل هذا باب آخر؟ بالفعل شعرت بملمس خشب، وعندما دفعته بكل قوتها انفتح هذا الباب. شعرت بالسعادة لأنها ستنجو من الظلمة وانسلت للدخول من الباب لتدرك في تلك اللحظة أن الظلام لم ينقشع. ورغم أنها لم تعد تشعر بضيق السلم الحلزوني إلا أنها أحست بأن هذه الغرفة التي تقف فيها لابد وأن تكون هائلة الحجم. ضاع صوت أنفاسها في هذا اللامنتهى. جالت ببصرها وقد اعتراها الخوف في تلك الظلمة بحثًا عن شيء تستطيع أن تتشبث به.

وبعد فترة وجيزة تشكلت بالفعل ظلال تحولت إلى خط ضوء رفيع بدا منبعثًا من أعلى. تبدت ببطء وبشكل غير ملحوظ ملامح غرفة في الظلام، غرفة هائلة الحجم بدرجة غير متوقعة. لاحظت الفتاة أعلى الغرفة العوارض المفتوحة بجمالون السقف، ثم رأت بين هذه العوارض نافذة سطح ينفذ من خلالها ضوء القمر داخل الغرفة. وفي منتصف غرفة العلية الضخمة التي كانت تقف عند أحد أطرافها، كان هناك موضعًا يسطع عليه ضوء القمر كما لو أنه سجادة بيضاء مستديرة ممدودة على الأرض.

حينئذ اكتشفت الفتاة أيضًا شيئًا آخر، لاسيما أرفف على جوانب الغرفة الضخمة، أرفف خشبية عالية مُعلق عليها شيء ما. تجرأت الفتاة بدافع الفضول ورفعت بصرها كي تعرف ماهية هذا الشيء، ورأت ما يشبه الأذرع والسيقان الممتدة، وأعضاء بشرية متأرجحة وكذا ثياب ملونة. إنها عرائس متحركة، دُمى مُكدسة فوق بعضها وإلى جانب بعضها بعضًا، دُمى لا حصر لها، معلقة بخفة بخيوطها الرفيعة للغاية، لدرجة أنها أخذت تهتز وتتخبط في بعضها

محدثة أصوات خشخشة بمجرد أن مرت الفتاة بجوارها. تسمرت الفتاة في مكانها من فرط الفزع، إذ كانت الأصوات الصادرة مرعبة بشدة.

وبينما بدأت أصوات الخشخشة تتلاشى تدريجيًا، سمعت الفتاة صوت شيء آخر. إذ سمعت وقع خطوات تقترب منها قادمة من الظلمة. بدأ قلبها يخفق بشدة، بينما لم يسعها سوى الإنصات إلى وقع الخطوات بلا حيلة. ثم ظهر كيان ما من وسط الظلام، لم تتمكن من إدراك ماهيته في البداية، حتى اقترب ببطء من سجادة الضوء في منتصف غرفة العلية. في البداية استطاعت الفتاة أن تميز رداءًا أصفر اللون، ثم ضفيرتين سوداوين، وأخيرًا ظل هذا الكيان واقفًا وسط ضوء القمر وشرع في الغناء.

"شيء رائع، شيء جميل،
أن أسير وحدي على الشاطيء!
أنا الأميرة لي سي،
لأنني لا أريد، فلن يعثروا علي أبدًا."

“لي سي؟”

شعرت الفتاة بالارتياح وركضت بسرعة نحو الأميرة التي لم تفكر فيها منذ سنوات طويلة رغم أنها كانت محببة إلى قلبها وهي طفلة.

“يومك سعيد أيتها الفتاة!” هكذا قالت الدمية وأومأت برأسها الخشبية. “لا تخافي، فأنا الأميرة لي سي. لأنني لا أريد فلن يعثروا علي أبدًا. همممم ديدلدووم شرومم.”

“ولن يعثروا علي أيضًا!”

لم تتمالك الفتاة نفسها من الضحك، وشعرت كيف زال الخوف عنها. أرادت أن تحكي على الفور للأميرة التي كانت تنظر إليها بود بعيني الدمية كيف هربت من أبيها لتوها وكيف وصلت بهذه الطريقة الغريبة إلى هنا، إلا أنها سمعت فجأة صوت طقطقة عالي. فاختلست النظر داخل الظلام.

قالت الأميرة لي سي: “لا تخافي أيتها الفتاة!”

في نفس اللحظة تبدى ببطء وسط الضوء طائر لقلق، كما لو أنه جاء من الظلام أسفل غطاء، إنها دمية قديمة ومُمزقة للطائر، دمية حطت ساقيها الطويلتين بحرص وأخذ رأسها يتحرك بفضول من اليسار إلى اليمين ثم من اليمين إلى اليسار.

ظلت الفتاة تراقب لوهلة طائر اللقلق العجوز كما لو كانت مسحورة، حتى تعالت أصوات الطقطقة والقرقعة في الظلام ليظهر جيش كامل من علب الصفيح، تبعهم ثلاث شياطين قصار، وهيكل عظمي وعائلة من المومياوات، لدرجة أن الفتاة لم تعد تعرف أين عليها أن تنظر، إذ أخذت ببغاوات وطيور العندليب والبوم والنوارس ترفرف فوقها، كما راحت حمير وجياد بل وأيل صغير يتقافزون وهم يخرجون من وسط الظلام، وتسللت كذلك أغنام صوفية وثعابين

مختلفة الأطوال والألوان زاحفة نحوها، فضلا عن قطط ذيلها مشعث من الهواء والتحفز وكلب ألماني ينبح.

رأت الفتاة كيف راح المزيد من الدُمى التي كانت معلقة على الأرفف العالية الكائنة على جانبي الغرفة تتحرر من خيوطها لتهبط على الأرض، كما اكتشفت من بين كل الحيوانات التي أخذت تتجمع حولها الخنزيرة السيدة فوتس والبطريق بينج، وشوش السحلية ذات قبعة البالون الحمراء، وفيل البحر، والأسد والقط ميكيش، بل وميزت بين كل الحيوانات البروفيسور هاباكوك تباتونج، وعلاء الدين والقزم ذا الأنف الطويل والسيدة هوله والقرصان هوتسنبلوتس والساحرة الصغيرة وزوبو ترامب الأمير الصغير وثعلبه، والفتاة سيبل وجدتها، والشرطي ألويز ديمبفيلموزر وجيم كنوبف والسيدة فاس، والعملاق الزائف تورتور، الذي كان حجمه يزداد صغرًا كلما اقترب منها، وكذلك لوكاس وعربة قطاره إيما التي كانت تدنو نحوها ببطء لتفسح لنفسها مكانًا وسط الحشد بكل حذر.

إحتشد الجميع عند دائرة النور المضيئة التي كانت الفتاة تقف عندها مع الأميرة لي سي. كانوا يتدافعون ويتزاحمون، تعثر مُهر صغير على الأرض الملساء فوق أحد الأقزام، وشعرت الفتاة بحيرة من أمرها بسبب هذه الفوضى التامة، لدرجة أنها لم تلحظ أن جميع الدمى كانت في نفس طولها وأنهم كانوا يتحركون دون خيوط، كما لو كانوا أحياءًا حقًا، وفي نفس الوقت كانوا يتحدثون ويصيحون ويشتكون .إلا أن الفتاة لم تلاحظ قبل كل شيء ظهور شخص آخر من بين الظلام. فقط عندما وقف هذا الشخص أمامها مباشرة رفعت إليه نظرها مندهشة.

وإذا بإمرأة رائعة الجمال تقف أمام الفتاة، فارهة الطول ترتدي ثوبًا نسائيًا قديم الطراز مصنوعًا من الحرير الأبيض الكريمي اللامع، يضاهي لون ضوء القمر. كانت تسند أحد ذراعيها على الآخر، وترتدي في معصمها ساعة فضية رفيعة. كما كانت تمسك بسيجارة بين أصابعها وتدخن. كان لون طلاء أظافرها وأحمر الشفاه من نفس درجة حمرة حذائها ذي الكعب العالي.

قالت الفتاة: "التدخين ضار بالصحة."

أومأت السيدة برأسها وهي تبتسم، ثم جلست على الأرض وهي تطلق تنهيدة. أفسحت لها كل الدُمى المتحركة مكانًا عن طيب خاطر حتى فردت ساقيها بما في ذلك الحذاء الأحمر ليستقرا جانب بعضهما بعض أشبه بساقي غزالة. وكانت تحمل في يدها بالفعل منفضة سجائر، فتحتها كي تُطفيء فيها السيجارة.

"أنت مُحقة. التدخين ضار بالصحة. ولكن في زمني كان الناس يدخنون."

"في زمنك؟ ماذا تقصدين بذلك؟"

"نعم ياحبيبتي، ماذا تظنين؟ أنا ميتة منذ وقت طويل!"

إرتجفت الفتاة مذعورة، ماذا هي فاعلة الآن؟

قالت الأميرة لي سي مرة أخرى: "لا تخافي أيتها الفتاة."

وكانت الأميرة فعلت ما تفعله أي أميرة صينية، حيث ركعت على الأرض بجانب السيدة.

سألت الفتاة بصوت منخفض: "من أنتِ؟"

"أنا هاتو."

"هاتو؟"

"يبدو مضحًا، أليس كذلك؟" قالتها السيدة وابتسمت للفتاة، ثم أضافت قائلة: "لقد اخترعت أختي هذا الاسم، فأنا أُدعى هانلورا في الواقع، لكنها لم تستطع وهي طفلة نطقه. "

رددت الفتاة الاسم وقالت" هاتو، أعتقد أن هذا اسمًا جميلاً."

“**هاتو**، هل أنت نائمة؟” هكذا همست الفتاة بجانب أذنها.

بذلت هاتو جهدًا كبيرًا كي لا تضحك. كانت تستلقي على ظهرها وتراقب سحابة تتهادى فوق الشمس وتلقي بظلالها على جفنيها المغمضين. ثم استعرت الحرارة مرة أخرى على بشرتها. وأخذ النجيل يدغدغ ذراعيها العاريتين وقدميها الحافيتين أيضًا. إنها تشم عطر المرج الدافيء الذي لا يتحرك فوقه أي تيار هواء. ولا يمكن سماع أي صوت سوى طنين الجراد. أحيانا كان يسود سكون قاتل للحظة طويلة كما لو أن الجراد يحبس الأنفاس. إنها تتخيل كيف يراقبهما الرب الآن من أعلى وسط الحشائش الكثيفة والعالية. ها هما مستلقيتان هنا وهما يرتديان نفس الرداء الشعبي ذي المئزر الأحمر اللذين حاكتهما أمهما لهما خصيصًا لأجل العطلات. كما تتخيل أنهما دميتان، من هناك بأعلى، دميتان على المرج. لقد بلغت الثامنة في شهر مارس، وأختها في التاسعة. يتملكها هذا الشعور بشدة، لدرجة أن حرارة هذا الشعور تكاد تتصاعد من داخل أحشائها، كم تحب أوللا.

همست هاتو قائلة: “أريد أن أفشي لكِ سرًا.”

“ما الأمر؟” هكذا ردت الأخت همسًا، وقد اقتربت بشدة من أذنها حتى أنها شعرت بنفح أنفاسها الساخنة.

أدارت هاتو رأسها نحو أوللا وفتحت عينيها. ورغم أن الأختين ليسا توأمين، لكن الشبه بينهما كبير للغاية، لدرجة أن هاتو كانت عندما تنظر إلى أوللا تشعر وكأنها تنظر في المرآة.

“أنا أحب أبي أكثر من أي شيء في هذا العالم.”

“حتى أكثر مني؟”

أومأت هاتو. كم شعرت بالسعادة لأنها أفصحت عمّا بداخلها وباتت تعرف أن أختها لم تغضب منها لهذا السبب. حينئذ تعانقها أولىلا بالفعل. لم تعرف ماذا علّها تقول، طوال الوقت الذي قضياه مستلقيتين في المرج، إذ بدا الكون وكأنه توقف.

في وقت ما همست أولىلا قائلة: "هاتو؟ أنظري هناك." وأشارت نحو الجبال.

إلتفتت هاتو واختلست النظر عبر الوادي.

"كانت الشمس تسطع لتوها فوق قمة الجبل هناك. وهو ما يُطلق عليه الحادي عشر، لأن الساعة وقتها كانت تمام الحادية عشر. والآن ستتوجه الشمس نحو رأس الثانية عشر أعلى الجبل. وعندما تستقر فوقه يكون هذا هو وقت الظهيرة."

أخذت هاتو تراقب مزارع الفلاحين في الوادي، ورأت الأبقار في المرعى، أشبه بنقاط صغيرة، وأحست ببريق نهر برايتاخ البارد والرقيق، الذي ينساب عبر كل شيء. كما ميزت في نفس اللحظة أمها وهي تركض بسرعة لتصعد نحو المرعى وتلوح بيدها وسرعان ما سمعت هاتو ندائها.

قفزت الأختان نحوها وهما يهبطان من أعلى المرعى واندفعتا بين ذراعيها. لم تتجرأ أي منها أن تسألها ما الأمر، لأن الأم كانت في عجلة شديدة من أمرها كي تعيدهما إلى المزرعة. وكان الأب قد أخرج لتوه السيارة الزرقاء طراز دي كيه دابليو من مخزن الغلال وأخذ يثبت الأمتعة فوق رف سقف السيارة. أرسلت الأم الطفلتين إلى دورة المياه مرة أخرى، حيث انتظرت إحداهما الأخرى أمام الباب. استشعرت هاتو أن شيئًا سيئًا حدث وحاولت دون جدوى أن تحتفظ في ذاكرتها بصور هذه الشقة التي سكنوها منذ أسبوعين وسط جو الصيف العليل، صورة طاولة الطعام وعليها مصباح الكيروسين، والسريرين

الذين يعلوان بعضهما والستائر ذات اللونين الأحمر والأزرق، والشرفة الخشبية السوداء ذات السقف المنخفض. وعندما عادت الفتاتان وهبطتا المنحدر الخشبي كان الأب يجلس بالفعل وراء المقود والأم تنتظر عند باب السيارة المفتوح كي تدعهما يجلسان على المقعد الخلفي. لم يظهر أي من الزوجين المسنين مؤجري السكن، حيث كانت الفتاتان تمران بهما دائمًا كل صباح لجلب سطل اللبن الحليب المتهالك. دار الأب حول المزرعة وعرج نحو طريق رملي ومنه إلى الشارع. بينما قبعت الفتاتان على المقعد الخلفي وأخذتا تراقبان بحزن من وراء نافذة السيارة بيضاوية الشكل كيف ظلت تلك المزرعة وأشجار الكستناء الضخمة والقديمة تزداد صغرًا أكثر وأكثر حتى اختفت وراء الغبار الذي تتسبب فيه السيارة، كما لو كان يريد أن يخفي وقت العطلة بأكمله خلف ستار.

قالت هاتو بتروٍ: غريبة أنكِ وجدتيني. فهذا بيت قديم للغاية مليء بالأبواب والسلالم السرية، شُيد في العصور الوسطى من جدران سميكة وهو يحتوي على دهاليز لم يعد أحد يعرف ماذا كان الغرض منها. لم يحدث قط أن تمكن أحد من الصعود إلي هنا. ولكن نظير هذا يتعين على من يفعل ذلك أن ينكمش."

"ماذا تقصدين بذلك؟"

"حبيبتي هل تعتقدين أنني عملاقة؟"

أمسكت هاتو مرة أخرى بسيجارة في يدها وأشعلتها بقداحة فضية وضعتها بعد ذلك إلى جانب منفضة السجائر الفضية. تصاعد الدخان خلال ضوء القمر وأخذت الفتاة تراقب ستاره الرمادي الرقيق وهو يختفي في ثنايا السقف العالي شديد العتمة. وأومأت بخوف.

هزت هاتو رأسها وابتسمت كما لو كانت تتحدث إلى طفل صغير لا يفهم أمرًا غاية في البساطة وقالت: "الدُمى المتحركة ليست في نفس طولك، بل أنت التي أصبحت صغيرة في مثل حجمهم ياحبيبتي! وأنا من صنعهم جميعهم."

أشارت هاتو إلى نفسها بفخر بسيجارتها المشتعلة وسط الدائرة.

كانت الفتاة قد نسيت أمر الدُمى المتحركة التي لاحصر لها والتي أخذت تراقب الاثنتين بصمت شديد.

"أنتِ من صنعتهم؟"

أومأت هاتو.

"لقد أهداني أبي ذات يوم أسطوانة فيديو رقمية لفيلم من أفلام جيم كنوبف."

"وهل أعجبك؟"

"نعم. أعجبني. ولكنني لم أعد طفلة صغيرة. فأنا أبلغ الثانية عشر."

هزت هاتو رأسها مبتسمة وقالت: "بالطبع أنت طفلة صغيرة. بل أنتِ صغيرة جدًا أيضًا. وهل شاهدتما فيلم جيم كنوبف معًا، أنتِ مع أبيكِ؟"

"لم يعد أبي يسكن معنا منذ وقت طويل."

ظلت هاتو تدخن في صمت وهي تراقب الفتاة الحزينة التي كانت تجلس أمامها على سجادة ضوء القمر. وعندما ضغطت السيجارة في المنفضة الفضية الصغيرة لتطفئها قالت: "كان لديّ أب شأني شأن كل الأطفال. وكنت أصغر منكِ كثيرًا حينما رحل ولم أعرف ما إذا كنت سأراه ثانية أم لا."

نظرت الفتاة إلى السيدة بفضول وسألت:

“لماذا رحل؟”

“تعين عليه أن يذهب إلى الحرب.”

“**حمدًا** لله! لقد وصل التلغراف!”

كان أوجوست كراتسرت ينتظرهم في فناء البيت الكائن في شارع دوناوفورتر. وكان البيت الذي يسكنونه ملكًا لصانع العربات الأصلع. وكان هو نفسه يسكن مع زوجته أوشي والصغير تيو في الطابق الأرضي، وكانت الورشة والصالة الكبرى التي كان يصنع فيها الحافلات الصغيرة كائنة خلف البيت. لم يتوقف الأب طويلا للتحية، بل بدأ على الفور في حل الأمتعة من سقف السيارة وإنزالها.

ظلت حرارة أسبوعي المصيف عالقة في غرف الشقة المظلمة. فتحت الأم النوافذ والشيشان وتوجهت إلى المطبخ كي تعد طعام الغداء، بينما اختفى الأب في الحمام وأخذت هاتو تتجول من حجرة إلى الأخرى وتتعجب كيف أصبح كل شيء غريبًا عليها. المفرش الأبيض المطرز على الطاولة المستديرة في غرفة الطعام، الأريكة والبيانو بجوار خزانة الكتب الداكنة في حجرة المعيشة، حجرة نوم والديها التي ظلت نوافذها مغلقة وقد تجمع الضوء الخافت على بطانية السرير ذات اللون الأخضر الذهبي في مرآة منضدة الزينة الرقيقة. حتى حجرتها بدت لها وكأنها تبدلت. كانت أولا تستلقي على فراشها وتقرأ. بينما جلست هاتو على الأرض وجلبت الدمى التي لم تكن قد رأتها طوال أسبوعين.

لكنها لم تتوقف عن التفكير في رحلة السفر. كيف كان مؤشر عداد سرعة السيارة ماركة دي كي دابليو يهتز. وكيف مروا بسرعة على قرى لانديبرج على نهر ليخ ثم إجلينج وبعدها كاوفرينج

وهورلاخ. حلقت فوقهم طائرة حربية كبيرة عند مرورهم بقاعدة ليشفيلد الجوية. سألت الأم إذا ما كانت الطائرة متوجهة إلى بولندا، ولم يرد الأب بشيء. تطلعت الأختان نحو الطائرة بأنفها الزجاجي ومروحيتها التي اعتلى الصليب الأحمر المعقوف دفتيهما. كم كانت تشق طريقها بصعوبة وثقل عبر السماء الصافية. كما شاهدت الأختان طائرة ثانية وثالثة ثم اختفت الطائرات عن ناظريهما. وبعد ذلك بقليل ظهرت على يمينهم غابة الموائد السبع في أوجسبورج التي كانوا يذهبون للتنزه فيها أحيانًا أيام الآحاد، ثم البوابة الحمراء. وقد فرحت هاتو بمشاهدة كل هذا مرة أخرى رغم حزنها لأنها اضطرت لمغادرة تلك المروج على أطراف الغابة. بدى المزيد والمزيد من الأعلام ذات الصليب المعقوف معلقةً عند برج بيرلاختورم وعند مبنى البلدية أكثر من المعتاد، حيث كان القماش الأحمر يرفرف بثقل في هذا الجو الحار. كانت نافورة أوجوستوس برونين مهجورة ولم يكن هناك أحد أمام المحال التجارية في شارع هوهينفيج. بل وكاد الشارع أن يكون خاليًا من السيارات.

لم ينطق الوالدان بكلمة أثناء تناول الطعام، ولم تتجرأ الفتاتان بعد على توجيه أسئلة عمّا حدث. يوجد على الطعام بطاطس محمرة بالدهن، وكان صوت صلصلة أدوات المائدة هو الصوت الوحيد الذي يتبادر إلى الأسماع. ولكن عندما استدعى الوالدان الطفلتين إلى الردهة لاحقًا أدركتا ما يحدث. إذ تداعى توتر اليوم بأكمله وشرعت هاتو في البكاء وقد تدلى ذراعاها حين كانت تنتحب بشدة وجسدها الصغير بأكمله يهتز والدموع تتساقط على المئزر الأحمر لردائها الشعبي، وكانت تتطلع إلى أبيها من وراء دموعها، حيث وقف أمامها وقد ارتدى الآن الزي العسكري. بدا غريبًا بالسترة الرمادية ذات الأزرار

المعدنية الرمادية والنسر الفضي والصليب المعقوف على صدره. أخذت تتفحص بنطاله الرمادي والحذاء الأسود ذا الرقبة وسط دموعها، وكلها أشياء لم تره بها من قبل، كذا الخوذة الفولاذية على رأسه. لقد أدركت هاتو أنها الحرب. إنها الحرب الآن. انحنى والدها وضمها بين ذراعية. استغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى توقفت عن البكاء وظل هو متشبثًا بها قدر المستطاع. ثم مسح الدموع عن وجهها بمنديله قبل أن يذهب.

الجو حار في المطبخ، حار وساكن. أحست هاتو كما لو أنها ليست الرياح، بل ضوء الشمس الساطع نفسه هو الذي يدفع الستارة الرقيقة أمام النافذة المفتوحة ويهزها. لقد مر عام كامل تقريبًا منذ أن اضطر الأب للرحيل، وهي لا تزال تفتقده كثيرًا حتى اليوم لدرجة أنها تنقب عنه بنظراتها بقلة حيلة. تجلس أولا في الزاوية الأخرى لمائدة المطبخ وهي تحني رأسها على دفتر ملاحظاتها، بينما تربت هاتو على الفوطة المزهرة. تقف الأم أمام حوض المطبخ لتغسل البازلاء وتنظفها من القرون العالقة بها، وكانت إحدى زميلات الأب قد جلبتها إليهم من حديقتها الخاصة. ها هي رسائل الأب التي يبعث بها من ميدان المعركة وقد وُضعت في وعاء نحاسي مسطح على الرف بجوار رأسها. الحرب ضد بولندا، وبعدها الدنمارك والنرويج ثم الزحف نحو فرنسا. كانت رسالة تصل منه في وقت ما دائمًا، وكان يكتب دائمًا أنه بخير. مؤخرًا كتب أنه متمركز في مدينة كاليه الفرنسية وأنهم لا ينبغي أن يقلقوا وأرسل القبلات للفتاتين.

لم تكن الأم ترتدي في هذا الجو الحار سوى مريلة من القماش الخفيف والنعلين الصفراوين الصغيرين الذين تحبهما هاتو كثيرًا. وعلى عكس كل الأمهات الأخريات كان شعرها الأشقر المكسو بالشيب قصيرًا وبه موجة تطلبت منها وقتًا طويلاً. ترى هاتو أمها التي كانت ممثلة مسرح ذات يوم، أجمل كثيرًا من أمهات صديقاتها.

قالت الأم بصوت منخفض ودون أن ترفع عينها عن البازلاء: "تشعر هذه الحشرة بسعادة كبيرة داخل قطرة الماء كما لو كانت مملكة في الجنة."

كما لو كانت تستطيع أن تقرأ أفكارها، إذ تبدأ كما تفعل أحيانًا بإلقاء نص فتتلاشى أحزان هاتو تمامًا. إنها تحفظ الجمل عن ظهر قلب، حتى وإن نسيت بين الحين والآخر المسرحية التي وردت فيها.

"سعيدة وراضية حتى يحكي لها أحدهم عن بحر العالم الذي تلهو فيه الأساطيل والحيتان!"

تلهو فيه الحيتان. لم تمنع هاتو نفسها من الابتسام عند سماع هذه العبارة. عندئذ استدارت الأم لتنظر إلى ابنتيها، في إحدى يديها سكين المطبخ وفي اليد الأخرى حبة بازلاء، والماء البارد يتلألأ على أصابعها. وتابعت بصوتها الساحر، صوت يوم الأحد وبلكنة أهل فيينا التي يرجع إليها أصلها والتي لا ينكرها أحد، تابعت قائلة بصوت عالٍ: "خذيه الآن يا مايلادي- سأتخلى طواعية عن الرجل، الذي نزعوه بخطاف النار من قلبي الذي ينزف."

نظرت الفتاتان إلى أمهما بأفواه مفتوحة. لطالما سمعت هاتو من يحكي لها كيف التقت الممثلة البرلينية الشابة روز مونينج بالممثل الشاب أيضًا فالتر أوميشن. وكيف وقع كلاهما في غرام الآخر وكيف كانا يمثلان في مسارح مختلفة معًا حتى جاءا في النهاية إلى مدينة

أوجسبورج. وكيف اضطرت الأم للتخلي عن حياتها المهنية، لأن هذه المدينة لم تكن تسمح بتعيين زوجين. بحر تلهو فيه الحيتان.

سألتها وهي تضحك: "هاتو، هل تحلمين؟"

"لماذا؟"

صاحت أوللا من الطرف الآخر للطاولة: "لأنك يجب أن تذهبي لجلب بعض الأشياء، أيتها الحالمة!"

"اركضي إلى أسفل بسرعة حيث آل كراتسرت ليعطوكي بطاقات تموين واشتري على الفور قطعة زُبد."

"ألا تستطيع أولا الذهاب؟"

"يجب أن تؤدي واجباتها المنزلية."

قطبت أولا جبينها.

"البلهاء حاملة الحقيبة المدرسية!" هكذا صرخت هاتو وجرت نحو غرفة المعيشة. فهي تعرف كم يُغضب ذلك أختها، وسرعان ما سمعت وقع قدميها الحافيتين تركض وراءها على خشب الأرضية.

أخذت الفتاتان تطاردان بعضهما في الشقة. وأخيرًا تحصنت هاتو في حجرتها وقد أسندت ظهرها إلى الباب حتى أمرت الأم إحدى الفتاتين بالعودة لآداء واجباتها المدرسية وأخرجت الأخرى من الغرفة. أفادت أوشي كراتسرت بأن زوجها في الورشة حين قرعت هاتو عليها جرس الباب في الطابق الأرضي. وعليه أسرعت الفتاة ركضًا لتعبر فناء البيت وتصل إلى صالة الورشة الكبيرة الكائنة بجوار مخزن الأخشاب الذي كانت أبوابه مفتوحة على مصرعيها بسبب الحرارة الشديدة. كما انبعثت من الداخل أصوات دقات صناع مكونات المركبات المدوية على المعدن وكذا أزيز آلات اللحام. وما أن دخلت هاتو الورشة حتى اعترضها تيو، ابن صانع المركبات الذي كان

يتجول اليوم أيضًا في الزي العسكري لشباب هتلر، كما لو كان ليس له أصدقاء. يكبر تيو هاتو بسنتين. وكان لحم فخذيه الأبيض مكتنزًا تحت بنطاله القصير.

"أين أبوك؟"

"وأبوكي؟ أراهن أنه يقضي وقتًا ممتعًا، ولم يطلق رصاصة واحدة حتى الآن، وهو يكتفي بالتقاط الصور فقط. يجب أن يتخذ من جودريان مثالاً يحتذي به، حيث تمكن من دفع الفرنسيين أمامه ومطاردتهم بمدرعته."

"هيا، كُفّ عن ذلك."

رأت هاتو أوجوست كراتسرت حين ظهر خلف إحدى حافلات الأومنيباص يرتدي كالعادة معطفه رمادي اللون ويحمل المنشفة ذات المربعات في يده ليمسح بها عرقه من على رأسه الأصلع. يحتفظ صاحب البيت ببطاقات السلع التموينية في جيب معطفه وفي أقل من الثانية كانت هاتو قد خرجت من صالة الورشة مرة أخرى سعيدة لأنها هربت من تيو الذي كان يصيح وراءها بكلمات لم تفهمها.

يكاد شارع دوناو فورتر أن يكون خاليًا من المارة تمامًا وقت الظهيرة، ولا يمكن سماع صوت سيارة واحدة، ولا يسير أحد سواها على الرصيف. إلا أنها سمعت فجأة صوت أزيز خافت في السماء أخذ يقترب منها تدريجيًا.

أخذت تركض وسط الشارع رافعة رأسها لأعلى حتى التصقت بظهرها بينما صوت الأزيز يقترب أكثر ويصبح أعلى. ثم ظهرت ثلاث طائرات عاليًا ومن مسافة بعيدة جدًا لدرجة أنها لم تربطها بهذا الصوت، ولكن الطائرات أخذت تقترب من هاتو ببطء

ومرت من فوقها وبدا لها كما لو أن السماء أصبحت بحرًا. بحر تلهو فيه الحيتان.

اختفت الطائرات وظلت هاتو واقفة في وسط الشارع الساخن والخالي، حينما دوى فجأة صوت انفجار وبعده انفجار ثاني توالت بعده الانفجارات التي كانت مدوية بدرجة أفزعت هاتو التي جثت على ركبتيها وأخذت تصرخ وهي تسد أذنيها بيديها.

أطبقت الفتاة يديها على أذنيها مذعورة كما لو كان باستطاعتها سماع أصوات الانفجارات هنا في السقيفة المظلمة. ونظرت بعينين مدهوشتين إلى السيدة التي كانت تجلس أمامها بهدوء كأن شيئًا لم يحدث.

قالت السيدة بتأمل: "أعتقد أنه آن الأوان كي تحكي لي لماذا أنت هنا."

إلا أن الفتاة نفسها لم تكن تعرف سبب وجودها هنا. لقد ضلت طريقها. هذا ما حدث بكل بساطة. إذ هربت من أبيها الذي كانت تقضي معه عطلة نهاية الأسبوع كل أسبوعين، في هذه المدينة الغريبة وهذه الشقة الغريبة التي لا تمتلك فيها غرفة خاصة بها، بل يتعين عليها النوم على أريكة غرفة المعيشة.

قالت الفتاة: "أبي." ثم صمتت مرة أخرى.

"هيا؟"

"أبي يسكن هنا الآن. أما أنا فأعيش في مدينة فرانكفورت مع أمي."

"والداكي منفصلان؟"

"مُطلقان."

"وأنت لا تحبين الحضور إلى هنا؟"

هزت الفتاة رأسها بالنفي.

"هل تعرفين مدينة أوجسبورج بوجه عام؟"

فكرت الفتاة قليلاً. إنها لم تهتم بهذه المدينة التي يعيش فيها أبوها الآن من قبل أبدًا. فهو عادة ما يصطحبها من محطة القطار ليذهبا معًا إلى شقته دون أن تلاحظ ما حولها من شوارع أو بيوت.

"لا؟ خسارة حقًا. لقد كانت أوجسبورج في طفولتي، أي قبل الحرب واحدة من أجمل المدن. كان بها بيوت فخمة وبها نهر الليخ. وكم تكون جميلة حين يغطي الجليد جبال الألب فتتلألأ من بعيد! عندما كنت صغيرة كان السيرك يزور المدينة أحيانًا ويجلب معه الأفيال والمهرجين. وفي كل صيف كانت المدينة تستضيف ألعاب الملاهي من أرجوحة دوارة وأرجوحة المركب ولعبة النيشان والنضد التي تبيع الحلوى. وذات مرة جاء كذلك مسرح العرائس إلى المدينة، كانوا من الغجر الرُحل."

"لا يصح استخدام كلمة غجر."

"ولكننا كنا نستخدمها آنذاك. كنا نشعر دائمًا ببعض الرعب عند سماع هذه الكلمة لأن الناس كبار السن كانوا يحكون لنا أن الغجر يخطفون الأطفال."

"هذا ليس صحيح."

"بالطبع ليس صحيح. ولكننا رغم ذلك كنا نتخيل كيف سيكون الحال حين نرحل بعيدًا في إحدى عربات الغجر. ولكنني لم أرغب في إخبارك بذلك، بل أردت أن أحكي لكِ عن المرة الأولى التي شاهدت فيها العرائس المتحركة. حيث خيم الغجر في حديقة المدينة، بالقرب من هنا. ونحن الأطفال جلسنا وسط النجيل، لا أتذكر جيدًا وجود خيمة. لكنني أتذكر دمية كاسبر وشرطي وأتذكر دمية جريتل

والجدة. وكان كاسبر يضرب الجميع على رؤوسهم، الجميع عدا جريتل. كم ضحكنا كثيرًا. وكنت أود أن أعرف ماذا حدث لمُحركي الدُمى.”

“لماذا؟”

إبتسمت هاتو للفتاة بحزن.

“لقد ذهب كل الغجر إلى معسكر الاعتقال.”

حتى هذه الكلمة التي لا تعرف الفتاة عنها سوى القليل كان معناها له وقع مرعب. فنظرت إلى الدُمى المتحركة بقلق، حيث ظلوا يقفون جميعًا حولهما في دائرة واسعة، كما لو كانوا يراقبون ما حدث بكل دقة. وما أن تطلعت الفتاة في طائر اللقلق العجوز حتى تحرك نحوها بخطوات حذرة بساقيه الطويلتين. كان رأسه يتأرجح من اليسار إلى اليمين ثم من اليمين إلى اليسار. مدّ طائر القلق ساقيه الطويلتين بصعوبة وجلس إلى جوارها. ووضع منقاره الأحمر الطويل على الأرض وهو تعبان.

قال مدرس البيولوجيا: فضيحة أجناس ودم آري غالي.”

إلا أن هاتو لم تتمكن من التركيز لأن الضباب كان يلف الشوارع ذاك الصباح الخريفي المظلم، والآن ها هي المصابيح المستديرة تلقي بضوئها الخافت عديم الظل على تلميذات معهد شتيتن. ظلت الخارطة الملفوفة معلقة على حامل الخرائط كما كانت في الأسابيع الماضية. حيث سُطرت قوانين نورنبيرج باللون الأحمر القاني، تحتها أصحاب الدم الألماني، المختلط من الدرجة الأولى، المختلط من الدرجة الثانية واليهودي. أخذت هاتو تتابع بفكر مشوش تلك الخطوط التي تربط بين الدوائر ثم تشكل دوائر جديدة، فهي تعرف

ذلك بالفعل من البازلاء والقس ميندل. الأجداد، الوالدان، الأبناء. تشير الدوائر البيضاء لمنسوبي الجنس الآري والدوائر السوداء إلى اليهود، والدوائر نصف البيضاء أو التي يغطي اللون الأسود ربعها. مكتوب بجوارها مسموح بالزواج، وممنوع الزواج، والأطفال سيصبحون يهودًا.

"اليهودي." قالها الدكتور فيشر الذي يطلق عليه الجميع اسم أصل الإنسان غريب الأطوار، إلا أن هاتو كانت شاردة بفكرها مرة أخرى.

فروني شفيجلر، أو بالأحرى فيرونيكا، صديقتها المقربة تعزف بأصابعها البيانو على مقعد المدرسة بحذر ولا تستطيع هاتو أن تكف عن مراقبتها وتمر بأصابعها على مفاتيح البيانو الوهمية، تارة بقوة وتارة أخرى برقة شديدة. ها هو فيشر في زيه الرسمي المعتاد يأتي على ذكر موضوعه المفضل ثانيةً، لاسيما يوم حزب الرايخ لمدينة نورنبيرج. لقد حضره عام 1935 ولا زال يحلم بمسيرات شباب هتلر و اتحاد الفتيات الألمانيات وأنه كان قريبًا للغاية من قائدنا أثناء مروره بهم في سيارته المرسيدس المكشوفة، كان قريبًا جدًا منه للحظة. لقد رآه أدولف هتلر.

"لقد أُقِر هذا القانون المخصص للحفاظ على الدم الألماني والشرف الألماني بالإجماع. ومن وقتها محظور إتمام كافة الزيجات التي من شأنها تعريض الحفاظ على نقاء الدم الألماني للخطر، وهو ما لا يعني اليهود فقط، بل الغجر والزنوج وأبنائهم المولودين سفاحًا."

جالت هاتو ببصرها مرورًا بظهور رفيقاتها في الفصل حتى توقفت عند الصف الأول، عند ذلك المقعد المجاور للنافذة، حيث تجلس مارجا أو موللر القصيرة، التي ترتدي اليوم سترة صوفية خضراء.

كان هذا المكان في السابق يخص برناديت. وكانت هي وفروني يقابلان برناديت في حمام السباحة أثناء الصيف. ثم مُنع اليهود من دخول حمامات السباحة وبعدها لم تعد تأتي إلى المدرسة أيضًا. وقد اتفقت صديقاتها على زيارتها في البيت ولكنهن دأبن على نسيان ذلك.

معهد شتيتن هو مدرسة للبنات. يتزين مبناه الأحمر الأثري المشيد من الطوب الرملي ببرج حراسة مطل على الشارع وواجهة جملون شديدة الانحدار تفضي إلى ميدان مارتن لوثر، الذي كان قديمًا يحمل اسم القديسة آن الكائنة على أحد عواميد النافورة في منتصفه. وكالمعتاد وقفت هاتو هنا اليوم أيضًا تنتظر فروني بعد المدرسة. رأت السيدة فريدمان العجوز تمر بها. كانت تضع النجمة الصفراء. تعرف هاتو السيدة فريدمان وزوجها لأنهما كلاهما كانا يسكنان البيت المجاور للمدرسة، ذلك البيت الذي تتطلع إليه السيدة العجوز الآن. وكثيرًا ما كانت تقف على درجات سلمه العريضة أمام الباب لتتحدث إلى التلميذات. ها هي الآن مصاريع الشبابيك مُحصنة. إذ تعين عليهما بيع البيت كما فسرت لها أمها الأمر. لأنهما كانا يرغبان في الهجرة بثمنه، ولكن من الواضح أنهما لم ينجحا في ذلك. تقف فروني خلف هاتو وتضع يديها أمام عينيها.

"إلام تحدقين؟"

نفضت هاتو يدي فروني عنها إلا أن السيدة فريدمان كانت قد اختفت.

"هل تتذكرين برناديت."

"برناديت؟"

"سوف نزورها."

كان سواد الليل حالكًا أمام النافذة وهي الحالة التي أصبح عليها منذ أن تعين إظلام كل شيء بعد ذلك القصف بالقنابل، حيث تظل مصابيح الشوارع مطفأة ويلصق قائدو السيارات أغطية على الكشافات بما لا يسمح سوى برؤية شريط ضوء. يتسلل من الردهة خط ضوء رفيع من أسفل الباب إلى الغرفة، مما يهديء من روع هاتو لأنها لا تستطيع أن تستغرق في النوم. تسمع صوت أمها وهي تتحرك في المطبخ. ظلت هاتو طوال اليوم تفكر في برناديت. كم تود أن تعرف أين هو أبوها الآن، في هذه اللحظة. فهي تشتاق إليه كثيرًا لدرجة تجعلها أحيانًا تشعر بالغضب منه وهو ما يرعبها.

"هل أنت نائمة؟"

لم يرد من سرير الأخت المواجه للنافذة من الناحية الأخرى سوى صوت همهمة.

"يقول تيو أن أبي ليس بالجندي الحقيقي، بل هو مجرد مصور فوتوغرافي."

"همم."

"هل تعتقدين أنه أطلق النار على أحد وقتله بالفعل؟"

أحست هاتو أن أختها يقظة الآن حتى وإن لم تقل شيئًا ولم تتحرك.

"هل تعرفين إلى أين ينقلون اليهود؟"

سمعت أولـلا تهز رأسها. كم هذا غريب لأنها لا تستطيع أن ترى في الظلام كما أنها لا تستطيع أن تسمع أي شيء أيضًا.

والدا برناديت كانا يملكان محل أحذية في شارع ماكسيميليان، ولكنهما أضطرا لبيعه بينما ظل اسمه كما هو في المتجر الرئيس. وكان المتجر قديمًا ملكًا للأخوين لانداور اللذان هاجرا قبل عدة سنوات، حسب ما قالته لها أمها التي تقول دائمًا عندما تحتاج شيئًا وتعجز عن إيجاده في مكان آخر: فلنذهب إلى متجر لانداور. ربما تكون برناديت هاجرت هي أيضًا، هكذا أخذت هاتو تجرب الكلمة الجديدة وتوقفت في مكانها حين رأت أن تماثيل النافورة الكائنة في شارع ماكسيميليان تعرضت للإزالة. هناك بعض الرجال الذين يرتدون عفريتة عمل زرقاء اللون جعلتها الأمطارداكنة أكثر، يحزمون في صمت لتوهم تمثال أغسطس من أمام مبنى البلدية وقد غلفوه بالقش ثم وضعوه في صندوق كبير أخذوا يغلقونه بدق المسامير محدثين دوي كبير.

كانت هاتو وفروني قد اتفقتا على أن يتقابلا عند محطة القطار، كانت هناك لافتة معلقة عند البوابة مكتوب عليه العبارة التالية: يجب أن تدور العجلات لأجل النصر. إرتدت كلاهما زي اتحاد الفتيات الألمانيات، التنورات داكنة الزرقة والبلوزات البيضاء والأوشحة السوداء ذات العقدة الجلدية فما زال عليهما بعد ذلك حضور أمسية الوطن. تسير الفتاتان نحو ميدان أدولف هتلر، الذي لايزال الجميع يسمونه ميدان الملك، ثم مسافة قصيرة مرورًا بخنادق إطلاق النار حتى وصلتا إلى شارع هالشتراسه.

كان المنزل رقم 14 عبارة عن مبنى ضيق من أربعة

طوابق على طراز عصر المؤسسين وكائن على الجانب الأيسر من الشارع. وما أن وقفتا أمام البيت لم تعد هاتو متأكدة ما إذا كان المجيء إلى هنا فكرة سديدة. هناك نجمة اليهودية سوداء اللون مصنوعة من

الورق المقوى مثبتة على الباب بمسمار طويل، وبدا الأمر كما لو أنه لم يعد أحد يسكن هنا، بل أن أحدًا خدش الغطاء السوليفان فوق ملصقات جرس الباب بآلة حادة فأصبحت الأسماء غير واضحة. إلا أن اسم العائلة التي يبحثان عنها كان بالإمكان قرائته: آل بولاشيك. ضغطت هاتو على جرس الباب. لم يتبادر صوت الجرس إلى أسماعهما من الداخل. إنتظرت الفتاتان برهة دون أن يعرفا ما الذي يتعين عليهما فعله الآن، ثم دقت فروني على الباب العالي. ولم يكن هناك أي حراك أيضًا. دفعت هاتو مقبض الباب بكل حزم لأسفل فإذا به ينفتح من تلقاء نفسه. ففكرت الفتاة قائلة: حسنًا، والآن لم يعد أمامنا خيار آخر سوى الدخول.

تتراكم في كل مكان الصناديق وقطع الأثاث فوق بعضها أمام الأبواب بل وحتى على السلم، ولم يكن هناك سوى ممر صغير خالي يؤدي إلى أعلى، أحبال غسيل مليئة بالملابس مثبتة بخطافات ومشدودة عبر بئر السلم. وبينما بدا البيت هادئًا من الخارج، كان يضج بأصوات بالداخل، إذ تنامى إلى مسامع الفتاتين صوت قعقعة الأطباق، ضوضاء تشبه كما لو أن قطع الأثاث جُنت، صراخ طفل صغير. لا تعرف الفتاتان أين تسكن برناديت تحديدًا أو أين كانت تسكن، وهما ليس لديهما الجرأة حتى على طرق الباب المجاور. أشارت هاتو في صمت إلى فروني لتصعد السلم فأومأت الأخرى بعينين واسعتين وفم مغلق بإحكام. بهدوء شديد صعدت الفتاتان إلى الطابق الأول. حيث كان كل شيء بأعلى مثله بأسفل، قطع خردة وغسيل، الأبواب المغلقة وفوضى الأصوات خلفها وظلت الفتاتان مترددتين بشأن ما يتعين عليهما فعله، حتى توقف فجأة صوت القرقعة والسعال والصراخ وراء الباب الذي وقفا أمامه.

تبادر إليهما صوت غناء رجالي، كان خافتًا في البداية ثم أخذ يعلو ويعلو، كلمات غريبة غير مفهومة بنبرة حزينة وجاذبة. نسيت الفتاتان خوفهما وهما يستمعان إليه ولم تصدر عنهما حركة لفترة طويلة حتى انفتح الباب فجأة. فوقف أمامهما رجل عجوز محني الظهر شاحب الوجه. كانتا واثقتين من أنه سيسألهما عمّا يبحثان عنه هنا، إلا أن بصره مر من خلالهما. كان بنطاله واسعًا للغاية ولم يثبته حول خصره سوى حزام قديم. تسلل الرجل من أمام الفتاتين دون أن يلحظ وجودهما. إلا أن هاتو تعرفت عليه مرة أخرى وجعلتها الذكرى تتجمد في مكانها.

لقد تذكرت حين ذهبت للتسوق مع أمها ذات يوم في وقت مبكر من الصباح وفجأة رأت زجاج مهشم على الرصيف أخذ يصر تحت خطواتها واستغرق الأمر لحظة حتى أدركت أن هذه هي بقايا ألواح نوافذ المتاجر التي تمران بها. كانت نجمة داوود تلطخ كل مكان على الأبواب. أمسكت الأم بيد هاتو وجذبتها لتتابع السير بسرعة. وجل حصان يجر عربة صغيرة ذات عجلتين، نظرت هاتو في عين الحصان الواسعة الشاخصة بجنون. ثم وقفتا الاثنتان أمام رجل كان يجثو على ركبيته بين شظايا نافذة عرض متجره، بين بقايا بضاعته والأرفف حيث كان كل شيء ممزق وقد داسته الأقدام بما في ذلك القبعات والطواقي التي كانت بالأمس مغلفة بعناية. كان هذا هو.

لم تستطع هاتو التوقف عن التأمل في الرجل حتى نادى أحد اسمها مرة، ثم مرتين لتتحرر بصعوبة من الصور التي تراءت لها وتلتفت إلى فروني. لكنها ليست الصديقة التي نادت باسمها. إذ كانت فروني بدورها تقف بجوارها وتنظر داخل الشقة التي ظل بابها مفتوحًا على آخره. تتبعت هاتو نظراتها بخوف. نظرت من خلال الردهة الضيقة والباب المزدوج المفتوح على مصراعيه إلى داخل ما كان

في السابق صالون شقة فاخرة، إلا أنه بات الآن مكدس بأسِرة وخزانات ومائدة صغيرة ومشاية بداخلها طفل صغير. إخترقت مدخنة موقد الغرفة العالية حتى بلغت أحد النوافذ لتختفي في العراء نظرًا لعدم وجود لوح زجاجي بالنافذة. أخذت وجوه ما تحدق بالفتاتين. وكان الوجه الوحيد الذي لم تبد عليه ملامح الخوف هو وجه رجل طويل القامة وقف بجوار الباب يرتدي طاقية صغيرة على شعره الأشيب كما وضع شالاً أبيض اللون فوق بدلته البالية. كانت هاتو متأكدة أن صوت الغناء الذي سمعته منذ قليل صدر عن هذا الرجل ولكنها لم تعرف كيف خطر ذلك ببالها.

"هانيلورا!"

مرة أخرى تسمع اسمها الذي تقتلعه من الذاكرة.

إذا بامرأة تشق طريقها بصعوبة من بين الناس لتتقدم نحو باب الشقة.

"سيدة فريدمان!"

"ماذا تفعلين هنا ياهنيلورا؟ إذا اكتشفوا ذلك سوف يرسلونك إلى كاتسنشتادل."

"ما هذا الكاتسنشتادل؟"

"ألا تعرفينه؟ إنه سجن الجستابو الكائن في حي بلاو كابه."

هزت هاتو رأسها. لقد أحست أن أعين الناس جميعًا في الشقة موجهة إليها. "كنا نريد زيارة برناديت. برناديت بولاشيك."

تفحصها الرجل طويل القامة حينئذ بنظرة كادت تخترقها. كما سمعت هاتو من وراء ظهره أصوات همس.

قالت السيدة فريدمان بسرعة: "برناديت ليست هنا. إنها في أمان. في أمريكا مع والديها."

أمريكا. رددت هاتو الكلمة بداخلها: أمريكا.

قالت السيدة فريدمان العجوزبينما كانت هاتو تنظر إلى يديها المبسوطتين والمرتعشتين: "هنا، يعيش كل من بقي منا في أوجسبورج."

"من اليهود؟"

الطريقة التي نطقت بها فروني هذه الكلمة كانت بمثابة وخزة بقلب هاتو دون أن تدرك السبب. والسيدة فريدمان العجوز تركت ذراعيها يتهدلان دون مقاومة وقد كست وجهها نظرة رعب.

إستجمعت هاتو شجاعتها وسألت بتلعثم: "وماذا عن كل الآخرين، إلى أين ذهبوا؟"

صمتت أصوات الهمس صمت الموتى وحدق الرجل الطويل في الأرض. إلا أن السيدة فريدمان العجوز ابتسمت فجأة ابتسامة خفيفة. وظلت هذه الابتسامة تحلق طويلا وسط هذا السكون.

ثم قالت السيدة بود: "عليكما الانصراف الآن ولا تحضرا إلى هنا ثانية. هل تعديني بذلك؟"

أومأت هاتو. لديها غصة في حلقها.

قالت السيدة فريدمان كما لو كانت تعتذر بابتسامتها الرقيقة: "إنه السبت، أتعرفين ذلك. يتلو الحاخام الكاديش لكل من لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى المعبد اليهودي."

سألت هاتو هامسة: "كاديش؟"

"الصلوات على أمواتنا."

من بين الدُمى الصامتة التي ما زالت واقفة حول سجادة ضوء القمر الدائرية كما لو أنها تنتظر شيئًا ما أوشك أن يحدث قريبًا، تقدمت فجأة إحدى هذه الدمى صوب الضوء، مرورًا بالأميرة لي سي وطائر اللقلق العجوز الذي ظل جالسًا بجوار الفتاة وقد عقد ساقيه. إنه صبي صغير

ذهبي الشعر. كان يرتدي بنطالاً بأرجل واسعة لونه أخضر فاتح وكذلك قميصًا أخضر اللون، ويضع شالاً طويلاً لونه أصفر. تقدم بخطوات مترددة وسط بؤرة الضوء الذي سقط على شعره الذهبي المشعث من كل الجوانب، وجلس على بساط ضوء القمر وشرع في المسح على الأرض بيده الخشبية. كما لو أن بمقدوره لمس الضوء بهذه الطريقة. كما لو أنه يمعن الفكر أو يحلم. كما لو أنه ينتظر شيئًا ما.

لم يطرف بعينيه وسط وجهه الجميل ولم يلوِ فمه الخشبي. وحده الزمن هو ما كان يمضي دون أن يستطيع أحد رؤيته. وبعد انقضاء فترة منه نهض الصبي الصغير مرة أخرى وكأنه تذكر فجأة شيئًا ما. ظل يوجه نظره صوب سجادة ضوء القمر وبدأ يتجول حولها، ثم يتوقف ليواصل السير ثانيةً ويتوقف مرة أخرى، ثم نظر لأعلى كما لو أنه اكتشف شيئًا وركض نحوه لينظر إليه، تابع السير، دائمًا في دائرة الضوء المحددة، كما لو كان وحده تمامًا ولا وجود للعالم على الجانب الآخر.

سألت الفتاة بصوت منخفض: "من هذا؟"

قالت هاتو: "إنه الأمير الصغير."

"وماذا يفعل؟"

"يبحث عن الطائرة. أو الثعلب. أو عن وردته. إنه وحيد تمامًا."

“**هيا،** ادخلي!”هيا، ادخلي!"

دفعت أولـلا شقيقتها جانبًا، إلا أن هاتو هزت رأسها وظلت واقفة عند فتحة الباب. يجلس الضيوف في غرفة الطعام حول المائدة المفروش عليها مأدبة احتفالية ويتجاذبون أطراف الحديث حول الحرب وعن المعارك الجوية في إنجلترا وعن جورينج الثرثار وإمكانية دخول الأمريكان الحرب. لا ترى هاتو من بين الجميع سوى والدها الذي عاد مساء الأمس. كانت الأختان قد استغرقتا في النوم بالفعل حين وقف فجأة بين فراشيهما. إرتعبت هاتو عندما رأت في هذا الضوء الضعيف القادم من الردهة خيال رجل غريب، إلا أن الفتاتين تعلقتا على الفور في رقبته وأمسكتاه بإحكام.

كان أول ما تبادر إلى ذهنها في الصباح أنها ربما كانت تحلم بأنه عاد من الحرب، إلا أنها وجدته جالسًا حقًا على طاولة المطبخ. وها هو يجلس بنفس الطريقة الآن بين الضيوف الذين أرادوا الاحتفال بعودته، كان صامتًا ومُتعبًا وغارقًا في الفكر. لقد مر أكثر من عام منذ أن بدأت الحرب وارتدى هو ذات يوم هذا الزي العسكري الرسمي، الذي يرتديه الآن أيضًا كما لو أنه يجب عليه الرحيل ثانية على الفور. ينتاب هاتو الخوف عندما تفكر في ذلك، فتستجمع شجاعتها وتدخل إلى الغرفة.

"أنظروا! من الذي أتى؟"

لا تعرف هذا الرجل الذي يرحب بها. إنه هوبرت شونجر، منتج أفلام وأحد معارف والدتها القدامى من برلين. كان يجثم مفترشًا مكانًا كبيرًا بجوار أبيها وقد شد بطنه المنتفخة صديري سترته. يلوح

الأب لهاتو كي تذهب إليه فتتمسح هي بين ذراعيه. من بين الضيوف أيضًا آل مارشال، إيدي مغني الأوبرا وزوجته هيلدا التي تجلس بجوار الأم. أما ابنهما هانز فهو صبي فاره الطول أشعث الشعر، يناسبه تمامًا ياقة القميص المغلقة التي تلف عنقه.